رحلة مباركة مع القلب

حينمـا نبدأ هذه الرحلة الطيبة المباركة مع القلب فإن خير ما نتزود ونسترشـد به فـى رحلتنا هو ما ورد عن الصفـات والخصائص الكامنة داخل هذا القلب فى:

- آيات كتاب الله (سبحانه وتعالى) - القرآن الكريم - ملحق (١).
- وفى بعض من أحاديث رسول الله ﷺ - ملحق (٢).

وإجمالا للصفات والخصائص التى خزنها الله (سـبحانه وتعالى) فى القلـب كمـا ورد ذكرها فى آيات القرآن الكريـم (وكما جاء بعض منها مرادفا) فى بعض أحاديث رسول الله ﷺ يمكن إظهارها كالتالى:

م	الصفة	م	الصفة
*	الطبع لحجب العلم	*	الرحمة والرأفة
*	المرض/ الكفر والنفاق	*	الإيمان
*	التكذيب والجحود	*	الكفر
*	القسوة والغلظة	*	المرض
*	الحجب والإدخال	*	الطهارة والنقاء
*	الحب والتآلف	*	الفقه

م	الصفة	م	الصفة
*	البغض والكراهية	*	الرغبة والهواية
*	الخير والشر	*	الفزع والهيبة
*	الاطمئنان والسكينة	*	الرقة واللين
*	الإثم والمعاصى	*	الثبات
*	الميل والانحراف	*	الصبر واليقين
*	الهدى والحق	*	الرفض والإباء
*	الرعب والخوف	*	الغيظ والغضب
*	النية	*	الضيق والوجد
*	الهمة ضعفا وقوة	*	الريب والتردد
*	الندم والحسرة	*	النفاق والشك
*	العلم	*	الإغلاق والفتح
*	الشوق والود	*	التصور والتخيل
*	الخلو والفراغ	*	الأنفة والكبرياء
*	الإدخال والإخراج	*	الصفاء والوضوح
*	التصديق والتكذيب	*	نور الإيمان

م	الصفة	م	الصفة
*	السهو والانصراف	*	ظلمة الكفر
*	التقوى والفجور	*	الإنابة والإذعان
*	الرؤيا والعمى	*	الحقد والغش
*	الإشفاق والقلق	*	العداوة
*	الجهالة والغفلة	*	الغواية
*	السلامة من المرض	*	التعلق والزهد
*	الاشمئزاز والانقباض	*	الجزع والهلع
*	القصد والعمد	*	الغفلة
*	الخوف والأمن	*	الأمانة والخيانة
*	الفساد والصلاح	*	الأمل والتمنى
*	الغم والهم والحزن	*	مكان جميل أو قبيح

وهى خصائص وكما ورد ذكرها فى آيات الله (سبحانه وتعالى) تشكل أنواعا من السلوك الذى يترجم فى صور مختلفة من أقوال أو أفعال أو أعمال جميعها كان له من المعايير والمقاييس الداخلية الخاصة به والمسببات والدوافع الخارجية لتطبيق تلك المعايير والمقاييس لإظهار هذه الخاصية أو تلك فى صورتها وطبيعتها الإلهية والتى ظهر بسببها هذا السلوك أو ذاك.

ومن هنا فإن التفكر والتدبر فى قدرة الله (سبحانه وتعالى).. يشير إلى أن أى من هذه الصفات التى وردت فى كتابه الكريم إنما هى تتكون وتظهر بأساس علمى إلهى فيه ما فيه من الأسرار والقواعد والمكونات التى تُبنى معها تلك المعايير والمقاييس داخل هذا القلب.

وتلك المعايير والمقاييس فى داخل القلب قد تم ترتيبها كقاعدة وأساس من البيانات كمنظومة داخلية تستقبل مدخلات من المعلومات الخارجية عن طريق وسيط مدخل لهذه المعلومات.

وبناء على نوعية وطبيعة المدخلات تكون المؤشرات والنتائج المترتبة عليها تماما كما يحدث فى مراكز أبحاث الفلك أو الزلازل أو أية نوعية من مراكز الأبحاث. فمن المعلومات الخارجية التى تستقبلها الأجهزة العلمية عن طريق وسيط الإدخال إلى تلك الأجهزة تكون المؤشرات والنتائج.

ومن هذه البداية فإن الباحث الذى يتخذ من التدبر والتفكر منهجا أصيلا له.. يستطيع أن يقرب هذه الصورة الواقعية فى حياتنا العلمية والعملية ليجعل الشبه متطابقا من حيث المبدأ بين المركز البحثى والقلب.

فالقلب من الإنسان هو مركز الأبحاث الخاص به. والقلب يمثل هذا المركز البحثى شديد التركيب والتعقيد والذى يحتوى على أعظم وأوسع قاعدة بيانات على الإطلاق مما يجعله متفوقا على أعقد المراكز البحثية الأخرى والتى نشاهدها فى حياتنا العلمية والعملية. وكيف لا وقد قال الله (سبحانه وتعالى):

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

[البقرة..آية ٣١].

وعلى ذلك فإن القلب هو أعظم مركزبحثى على الإطلاق من بين المراكز المتعارف عليها فى الحياة وكيف لا وهو يحوى جميع قواعد البيانات [الأسماء كلها].. التى تمثل كل جذور العلم ومفرداته.. ويحوى كافة الأجهزة للانتفاع من تلك الأسماء والتى جعل الله (سبحانه وتعالى) الإنسان يحاكى البعض منها ولا يزال. فكانت الأجهزة مثل الترمومتر والتليسكوب والميكروسكوب والاستشعار عن بعد.. وجميع تلك الأجهزة التى ابتكرها الإنسان إنما هى من قاعدة بيانات [الأسماء كلها] وما هى إلا لتحاكى مثلها مما هو أكثر فاعلية وعمقا وتعقيدا.. وكيف لا وهى من تلك الأجهزة الخاصة بالمركز البحثى الأكثر اتساعا وتخصصا وشمولا.. إنه «القلب».

«القلب».. هذا المركز البحثى الأكثر تقدما على الإطلاق عن سائر المراكز البحثية الأخرى وما يحويه من جميع قواعد البيانات وما يتعلق بها من جميع أجهزة الرصد والقياس والاستشعار.. جميع ذلك ينتظر المستخدم الخبير أو وسيط الإدخال والاستنباط. وفى لغة البحث العلمى فإن جميع تلك البيانات والأجهزة إنما تنتظر الباحث والمستكشف.. فمن يكون؟.. من يكون «هذا الباحث أو ذاك المستكشف» ليبحث ويستشكف فى [الأسماء كلها] الموجودة فى هذا المركز؟

العلاقة بين «العقل والقلب»

ومع بداية الطريق الصحيح الذى نسيرفيه تحقيقا لرحلتنا الطيبة المباركة مع القلب.. فهذا الطريق الصحيح هو «البرهان والتحقق» من أن القلب هو محل العلم. ولكن الباحث المحقق لا يغفل عليه أن يتساءل.. ما دور العقل أو المخ الذى هو فى الرأس؟

وكما ورد فى آيات الله (سبحانه وتعالى) فإن دور العقل وكما هو واضح من معناه حيث يقال:

«عقل الرجل الناقة»... أى جعلها تقف عند موضع قد حدده لها

فالعقل إذا معناه الرباط أو المنع أو التثبيت.. إلى غير ذلك مما يفيد السيطرة على الشىء والتحكم فيه والمحافظة عليه من الضياع أو التية على غير هدى.

ومن هنا فإن الباحث المتدبر يصل إلى نتيجة أن «العقل» هو مركز التحكم والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن الباحث عن الحقيقة

ماذا يعنى مركز التحكم؟ والتحكم فى ماذا؟

والإجابة..هى.. أن «العقل» هو مركز الاستكشاف والتحكم لما فى داخل القلب من علم.. أو بمعنى آخر «العقل» هو القناة الشرعية للوصول إلى العلم الذى هو فى القلب..... وبمعنى آخر.. إلى أن نهتدى بإذن الله (سبحانه وتعالى) إلى الصواب والاقتراب من الحقيقة.. «العقل» هو طريق الاستكشاف لما فى القلب من العلم.

ومن الممكن أن نطلق على «العقل» أنه هو «المستكشف» لما فى القلب أو «الباحث» عن الحقيقة من خلال العلم الذى فى القلب. هذا المستكشف وهذا الباحث يريد أن يجد ضالته حتى إذا وجدها عقلها وتحفظ عليها ليمنعهـا مـن التيه أو الضيـاع. ومن خلال خـبرة الباحثين فى مجال الأبحـاث العلمية فإن الباحث حينما يريد أن يصل إلى نتيجة من بحثه فإن عليه أن يمر بمراحل عدة وهى:

أولا: تحديد موضوع البحث.

ثانيـا: إذا حدد موضـوع البحث.... يبدأ فـى مراجعة عمل ما تم كتابته من قبل حول هذا الموضوع ليعلم نتائج ماسبق من أبحاث – حول هذا الموضوع – من الباحثين الآخرين.

ثالثـا: تحديد منهـج البحث الخاص به ليصـل إلى نتيجة متقدمة تضيف إلى نتائج الأبحاث السابقة شيئا جديدًا.

رابعـا: اسـتخلاص النتيجة الجديدة التـى تم التوصل إليها لتكون علامة واضحة ويتم تدوينها والحفاظ عليها للاستفادة منها مستقبلا.

وهذا تماما ما يفعله «العقل» تلقائيا.. حتى دون أن يدرى صاحبه أنه يفعل ذلك... أو يفعل كل هذه الخطوات أو تلك المراحل المعقدة.

فالعقل إذا هو أداة التحكم والاستكشاف فيقوم باستكشاف ما بداخل «القلب» من جذور العلم المختلفة التى جعل الله «القلب» محلا لها..... ويقوم العقل أيضا باستكشاف ما يراه من أحداث فى البيئة المحيطة من خلال مراكز القلب الاستكشـافية المختلفة من القياس والمناظرة والتخيل والظن والتوهم إلى غير ذلك من الخصائص الاستكشـافية التى وهبها الله (سبحانه وتعالى) للقلب.

فالعقل يتحكم فيما تم تخزينه من العلم فى داخل القلب ليستخرج ماينا سب «حل المشكلة» التى تعرض له فى البيئة الخارجية المحيطة به لكى يتعامل معها بما يحفظ له الوصول إلى إيجاد حل لهذه المشكلة.

فحينما لا يصل.. فإن طبيعته و خاصية أداة التحكم بداخله... تحاول التحكم مرة أخرى وعقل ماهو مناسب لحل تلك المشكلة... حتى إذا ماتوصل إلى حل لها وخرج منها مطمئنا.. هنا وعند هذه اللحظة تولدت عنده تجربة ناجحة، وفى حالة أخرى تجربة غير ناجحة... ومن هذه أو تلك فقد وصل إلى نتيجة.. تلك النتيجة تكون معها «معرفة».. وهذه «المعرفة».. تكون لبنة وأساسا من أسس العلم الذى يتعلمه الإنسان فى حياته على الأرض.

ومن كثرة التجارب يكون العلم فى نمو مطرد لدى بنى آدم لتتحقق إرادة الله (سبحانه وتعالى) فى خلافته على الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[البقرة..آية ٣٠].

❑❑❑

ماهية «العلم» الذى جعل الله (سبحانه وتعالى) القلب محلاً له

أما العلم الذى جعل الله (سبحانه وتعالى) القلب محلا له – فيجتهد أهـل العلم والصلاح فى معرفة كيفية تخزينه من القلب... هؤلاء العلماء يجتهدون حتى فى معرفة.. «ماهية» هذا العلم.

هـل هذا العلم... هو «علم فطرى»؟... أى «علم ملقن»... أم هل هذا العلم... هو «علم تجريبى»؟... أى مكتسب بالتجربة...

إلى غـير ذلك من ألوان التسـاؤلات التى يحـار فيها ويعى بها أهل العلم والصلاح ولكـن المجتهدين والباحثين من هؤلاء يجدون أن عليهم أن يبدأوا تسلسلا يمهد لهم الطريق فتسهل عليهم المهمة.

وهذا التسلسـل يبدأ بتصنيف المخلوقات.. فإن هذا التصنيف يوضح أن المخلوقات فى إطارها العام تنقسم إلى الأنواع الآتية:

أولا: الملائكة - الجن - الإنس

وكل من الملائكة والجن والإنس تشكل مجموعة من المخلوقات.

ثانيا: الحيوان - النبات - الجماد

ومـن هنا يرى أهـل العلم والصلاح أن هناك نوعين للعلم بصفة عامة يتوافق مع تصنيف هذه المخلوقات فالنوع الأول من العلم هو:

-العلم التلقينى-

وهذا العلم يُلقن من الله (سبحانه وتعالى) إلى المخلوق تلقينا فلا يزيد ولاينقص ولا يتطور مع الوقت وهذا النوع من العلم إنما هو لجميع المخلوقات على الإطلاق ماعدا صنفا واحدا من المخلوقات ألا وهو «الإنس».

أما «الإنس» فقد شاءت حكمة الله (سبحانه وتعالى) أن يكون العلم الخاص به إنما هو النوع الثانى من العلم وهو:

-العلم التجريبى-

وهذا العلم يزيد وينقص ويتطور مع الزمن.

فالباحث المتدبر الذى يعلمه الله (سبحاته وتعالى) حيث يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة.. آية٢٨٢].

هذا الباحث... يصل من خلال بحثه وتدبره وتأملاته فى خلق الله (سبحانه وتعالى).. أن جميع المخلوقات ماعدا الإنسان لها علم من نوع واحد.. ألا وهو «العلم التلقينى».. فالجماد والنبات والحيوان كل هذه الأطوار.. والأطوار الأخرى من الجن وكذلك الملائكة.... كلها جميعا لها هذا النوع من العلم.. وهوالعلم التلقينى.

ومعنى علم «تلقينى» أن الله (سبحانه وتعالى) يلقنه للمخلوق تلقينا ومن هذا التلقين يهتدى المخلوق إلى الهيئة والنسق التى يكون عليها فى حياته فى هذا الكون.

حيث يجد الباحث المدقق أنه حينما سأل فرعونُ موسى (عليه السلام):

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

[طه..آية ٤٩ –٥٠].

فهذا الخلق كل على هيئته وصورته قد أعطى الهداية التى هى العلم التلقينى الذى به يدبر معيشته ووظيفته فى هذا الكون.

و«الجـن»... ومـا يعلمون من سـحر أو أعمال يقترفونهـا إنما هى بعلـم تلقينى لا يزيد ولا ينقص ولا يتطور مـع الوقت وحتى الملائكة.. و«الملائكة المقربون».. الذين قد يصل علمهم إلى نطاق لايعلم مداه إلا الله (سـبحانه وتعالى).. الذى منحهـم إياه.. فإن هذا العلـم مهما بلغ من اتسـاع.. أو عمق.. أو تعقيد فإنه «علم ملقـن»..... لا يزيد ولا ينقص ولا يتطور بمرور الوقت أو الأحقاب.

ويرى الباحثون.. أن الدليل على ذلك أنه مع مرور الأزمنة والأحقاب و منذ خلق الله (سبحانه وتعالى) هذه المخلوقات... فإن أيا منها لم يطرأ عليه تغيير فى حالته أو فى أسـلوب حياته منذ أن خلقه الله (سبحانه وتعالى) وإلى أن تقوم الساعة.

فلم يُر عالم النبـات... قد تغير عن حالته ووظيفته منذ خلقه الله (سـبحانه وتعـالى)... وكذلك عـالم الحيوان... فلـم يُر أنه تطور فى أسـاليب حياته التى خلقه الله (سبحانه وتعالى) عليها وحتى الآن..

وكذلك عالم الجن..... وهكذا مما يعطى دليلا قاطعا أن العلم الذى منحه الله (سـبحانه وتعالى) لهذه المخلوقات إنما هو «علم تلقينى» مهما كانت درجة عمقه واتساعه مثل درجة علم «الملائكة المقربين».

أمـا العلم الذى أعطـاه الله (سـبحانه وتعالى) بنـى آدم فإنه «علم تجريبـى».. قـد وضع الله (سـبحانه وتعالى) جذوره وأسسـه فى قلب الإنسان ممثلا فى آدم و بنيه.

وقد جعل الله (سبحانه وتعالى) هذا العلم قابلا للتطور حينما يتفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة به وتتولد التجارب من هذا التفاعل ومن هذه التجارب تصير المعارف التى هى أساس لألوان متنوعة من العلم.

وهـذه الألوان من العلم وهو ما يعرف بالفروع أو التخصصات العلمية التى تطورت وتشعبت لتخرج لبنى آدم الآن صنوفا من المخترعات التى جعلته يسـير على الأرض ويطير فى الهواء ويحلق فى الفضاء ويستريح فى كواكب أخرى..وسوف يستمر هذا التطور إلى أن تقوم الساعة تحقيقا لإرادة الله (سبحانه وتعالى) فى خلافة بنى آدم على الأرض.

ومـن هنـا فإن الباحث الـذى يدقق ليصل إلى فـرق واضح بين علم الإنسان التجريبى وبين علم سـائر المخلوقات الأخرى التلقينى... فإنه سـرعان مايجد هذا الفرق واضحا جليا فى أول تجربة على الأرض وهى سـفك الدم الذى وصفت به الملائكة الإنسـان حينما علمت من الله أنه سـيجعله خليفة له (سبحانه وتعالى) على الأرض فردت قائلة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾

[البقرة..آية٣٠].

فسـفك الدماء هذا تم لأول مرة على الأرض حيث قتل أحد بنى آدم أخـاه فندم القاتل وتعلم من هذه التجربة أنه أصبح من الخاسـرين لأن هذا القتل يسـتوجب أنه من أهل النار وكان من النادمين.. ثم اسـتتبع هذه التجربة.. التى كانت تجربة مليئة بالحسرة والندم... تجربة أخرى وهى كيف يوارى سوءة أخيه..

وهنا يبعث الله غرابا فى نفس موقفه ويريد أن يوارى غرابا آخر ميتا.. فـرأى القاتل من هذا الغراب ماعلمه كيف يـوارى أخاه فى التراب... وتعلم هو... وتعلم بنو آدم من بعده طريقة دفن الموتى.

وهكـذا فإن العلم الذى أودعـه الله بنى آدم إنما هو علم تجريبى قد خزن جذوره وأسسـه فى قلبه وجعله (سـبحانه وتعـالى) ينمو ويتطور ويظهر حين الحاجة إليه عند مواجهة أحداث البيئة المحيطة به.

ويصل الباحثون إلى أن الله (سبحانه وتعالى) قد خزن العلم فى قلب آدم وبنيه من بعده على قسمين:

القسم الأول: «علم الحساب».

القسم الثانى: «علم الفطرة».

❑❑❑

القسم الأول:

«علم الحساب» ١ + ١ = ٢

يقول الله (سبحانه وتعالى):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[يونس..آية ٥].

والباحثون المدققون من أهل العلم لايصعب عليهم الوصول إلى نتيجة أن هـذا العلم.. «علم الحساب»..قد جعله الله أساسا لسائر العلوم الدنيوية التى بها ومعها وعلى أساسها يعمر بنو آدم هذه الأرض ومن الممكن أن يسمى هذا العلم «العلم الدنيوى» ويذهب البعض إلى تسميته «علم السطح»..... لماذا؟

لأن هؤلاء المدققين يرون أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل هذا القسم من العلم... «علم الحساب» على مكان سطحى من القلب ..... لماذا؟

والجواب... ليطلع عليه المؤمن وغير المؤمن حتى إذا قعد المؤمن بهمته عن طلب العلم واجتهد غير المؤمن فى طلبه تستمر حركة التقدم العلمى لتستمر معها حركة العمران على الأرض على النحو الذى يراه ويسجله الملاحظ والمتابع لمسيرة آدم وبنيه على هذه الأرض منذ أن هبط آدم وحواء عليها ليسكنوا فيها لتكون مقرا لهما ومسارا لحركة أبنائهما عليها.

وماحدث نتيجة لذلك من تجارب وأحداث يتطور معها علم بنى آدم وقد كان هذا التطور سببا فيما توصل إليه من أدوات وأساليب تساعده على الحياة فى هذه الأرض ولتعميرها تحقيقا لإرادة الله (سبحانه وتعالى) أن يكون خليفة له على هذه الارض.

حيث نجد أن التطور العلمى أصبح الآن على نحو كبير من العمق والتعقيد وماصاحب ذلك من اختراعات وابتكارات تسهل حركة بنى آدم على الآرض بل تصل بهم إلى الفضاء المحيط بها ليستكشف بنفسه من آيات ربه (سبحانه وتعالى) فى هذا الكون المحيط بهذه الارض.

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾

[الأنبياء.. آية ٣٧].

ومن هنا نجد أن من أهل العلم والبحث من يعتقد أن علم الحساب هو أساس كل العلوم الدنيوية حتى العلوم النظرية واللغوية فإن لها من القواعد والإحصاءات الخاصة بها ما يجعلها جميعا تقوم على أساس من حساباتها الخاصة بها لكى تنمو وتتطور فكل علم على الإطلاق له أصوله وقواعده أى حساباته الخاصة به التى بها يتشعب ويزداد عمقا وتعقيدا ليواكب التطور المطلوب منه ليسير متوازيا مع تطور سائر العلوم الأخرى حتى لايتخلف عنها ويصاب بالضمور أو الاضمحلال.

ومما لا يخفى على الباحث المدقق أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل «لعلم الحساب» قانونا أساسيا وهو أن الواحد إذا أضيف إلى الواحد فإن المجموع سوف يساوى اثنين ١ + ١ = ٢

والاثنان إذا أضيف إليهما واحد آخر فإن المجموع سوف يساوى ثلاثة وهكذا.. حيث تتفرع من هذه القاعدة سائر الحسابات وما يستتبعها من معادلات ونظريات تؤسس بها ومعها العلوم الدنيوية باختلاف أنواعها وتخصصاتها.

ولكن الباحث المتدبر ينبغى ألا يتوه فى هذه التعريفات ولكنه يقف عند مفهوم ومغزى «علم الحساب»... فهذا العلم بالنسبة للباحث الذى يدقق فيه يعنى أنه:

«علم التحديد»

أى إن هذا العلم يتعلم منه بنو آدم أن «المقدمة المحددة لابد أن ينتج منها نتيجة محددة».

ومن هذه المقدمات المحددة:

الأولى: النزول فى بحر عميق دون معرفة العوم وعدم وجود أدوات للنجاة.

الثانية: إلقاء ورقة فى النار.

فلابد لهاتين المقدمتين من النتيجتين التاليتين:

الأولى: الغرق لمن يفعل ذلك.

الثانية: احتراق تلك الورقة.

وهكذا من مختلف المقدمات والتى تؤدى إلى مختلف النتائج المترتبة عليها.. مما يلمسه الباحث وغيره فى هذه الحياة.

القسم الثانى:

«علم الفطرة»

لا إله إلا الله وحده لاشريك له وهو على كل شىء قدير»

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة أو «أم الكتاب»:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾..

[سورة الفاتحة – سورة ١ – عدد آياتها ٧].

فهذه السورة الكريمة وهى – أم الكتاب – تحتوى على أهم أسس هذا العلم الذى هو «علم الفطرة».. كما يروق للباحثين من أهل العلم والصلاح تسميته فأسس هذا العلم هى:

- الحمد لله (سبحانه وتعالى).. هو (سبحانه وتعالى).. الذى يحمد فى السراء والضراء.
- رب العالمين.. فهو (سبحانه وتعالى).. رب العالمين.. رب كل عالم وكل مخلوق.
- الرحمن الرحيم (سبحانه وتعالى)... الذى وسعت رحمته كل شىء.
- مالك يوم الدين.. هو (سبحانه وتعالى).. مالك يوم الدين.. يملك البعث والحساب

- إياك نعبد... هو (سبحانه وتعالى).. الذى يعبده المخلوق.. فلا يعبد سواه.
- وإياك نستعين.. الله (سبحانه وتعالى)..المستعان به فى كل أمر.
- إهدنا الصراط المستقيم.. هو(سبحانه وتعالى).. الذى يهدى إلى الصراط السوى..المستقيم..

وهذا الصراط السوى المستقيم.. للفائزين الذين فازوا بنعمة من الله (سبحانه وتعالى) عليهم.. أما غيرهم فهم المغضوب عليهم وهم الضالون عن هذه الهداية الإلهية.

وكذلك.. فإن الله (سبحانه وتعالى).. هو الله الذى لاإله إلاهو.... الملك..القدوس..السلام..المؤمن..المهيمن..العزيز..الجبار..المتكبر.. الخالق..البارىء..المصور.. هو(سبحانه وتعالى).. له الأسماء الحسنى..

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

[الحشر..آية ٢٤]

فالباحث المدقق يجد أن علم الفطرة مبنى على أساس واحد وهو: «الله واحد لاشريك له» فهو(سبحانه وتعالى)... الخالق البارىء المصور وهو على كل شىء قدير وقد أحاط بكل شىء علما.

وبهذا التفرد فى الألوهية أخذ العهد على بنى آدم وهم فى أصلاب أبائهم وأمهاتهم.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف – ١٧٢].

ويذهب بعض أهل العلم والصلاح إلى أن الله قد خزن هذا العلم فى «قلب» القلب لمكانته وأهميته كجوهرة ثمينة لابد أن توضع فى مكان أمين وفى داخل صندوق للحفاظ عليها لنفاستها وعلو قيمتها.

ومن هنا يذهب البعض من العلماء إلى تسمية هذا العلم: «علم الفطرة» أو «علم الأساس»... لأن على أساسه خلق الله (سبحانه وتعالى) الجن والأنس ليعبدوه.. حيث يقول الله (سبحانه وتعالى):

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾..[الذاريات..٥٦].

وحكمة الله البالغة قد جعلت مكان هذا العلم.. «علم الفطرة».. أو «علم الأساس» فى قلب القلب.. لماذا...؟

وكما يذهب البعض من أهل العلم والصلاح... فإن الله (سبحانه وتعالى) قد خزن علم الفطرة فى قلب القلب حتى لايطلع عليه إلا صنف مخصوص من بنى آدم أو الإنس... وكذلك الجن.. هذا الصنف المخصوص... هم أصحاب القلوب السليمة.

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾

[الجن – ١].

﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾..

[الجن – ٢].

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾..

[الجن – ١١].

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾..

[الجن – ١٣].

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾..

[الجن - ١٤].

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾..

[الجن - ١٥].

وفيما ورد من صالح الدعاء على قلب ولسان نبى الله إبراهيم الخليل (عليه السلام):

﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾..

[الشعراء..٨٧ - ٨٩].

فالقلب السليم.. كما يرى أهل العلم والصلاح.. كغرفة مضيئة.. فإن الداخل فيها يرى ما فى جنباتها وأركانها من أشياء.

أما القلب غير السليم.. فهو كغرفة مظلمة.. فإن الداخل فيها لا يرى ما فيها أو كصندوق مغلق لايعلم ما بداخله.

وعند هذا الحد وفيما ورد.. يقول الله (سبحانه وتعالى) فى حديثه القدسى.. «ما وسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن».. وفى هذا الحديث القدسى إشارة مبهرة إلى قيمة «قلب» العبد المؤمن... فهو يسع مالايتسع إليه اتساع الأرض ولا السماء... لماذا..؟ لأن هذا القلب يحمل صفات الله (سبحانه وتعالى).

الرحمن.. الرحيم..الملك..القدوس..السلام.. الخالق... البارىء.. المصور.... ويستشعر مافيها من صفات الكمال والجلال وطلاقة «العلم والقدرة»... فإن هذا «القلب» حينما يحملها فى داخله بقدرة

من الله (سبحانه وتعالى) ويسر منه (سبحانه وتعالى)... فإنه بحمل تلك الصفات التى لها من ثقل الجلال وأسرار العلو والكمال ما تنوء بحمله السماء والأرض والجبال.

وهذا ما يشير إلى أن الله (سبحانه وتعالى) قد اختار آدم وبنيه لخلافته (سبحانه وتعالى) على الأرض وحمل أمانة تلك الخلافة التى حينما عرضها الله (سبحانه وتعالى) على السموات والأرض والجبال فإنهن جميعا قد أبين أن يحملنها وأشفقنا منها.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾..

[الأحزاب.. ٧٢]

وهذه السعة لحمل تلك الصفات الإلهية... لا يكتمل الغرض منها إلا إذا كان هذا القلب مؤمنا.. لأنه فى هذه الحالة يكون بمثابة المخزن المضىء بنور الإيمان...فهذا «النور»... يتمكن معه الداخل لهذا المكان أن يرى من جنباته وأركانه كل شىء موجود به.

فيا سعد هذا القلب المؤمن حينما يكون الموجود به صفات الله العلى القدير الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء.. أما القلب غير المؤمن فيا شقاء هذا القلب من ظلمة الكفر... فهذه الظلمة تحجب معها تلك الصفات فيظل بعيدا عن أسرارها...بعيدا عن نفحاتها.

يقول الله (سبحانه وتعالى):

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾..

[البقرة.. ٢٥٧]

فالكفر.. ظلام فى القلب.. يحجب معه أنوار صفات الله وآياته (سبحانه وتعالى).... والإيمان نور فى القلب... تظهر معه صفات الله وآياته (سبحانه وتعالى).

وإلى هذا القدر يصل البعض من الباحثين من أهل العلم والصلاح إلى إيجاز وتلخيص لأهم تلك البنود التى أخذ الله (سبحانه وتعالى) بها العهد على بنى آدم وهم فى أصلاب آبائهم وهذه الأسس الموجزة كما يراها أهل البحث من أهل العلم والصلاح هى:

- ❑ يا عبدى إنى أنا الله خالقك... وخالق كل شىء فى هذا الكون من حولك.
- ❑ يا عبدى إننى قد أودعت قلبك قطرة من علمى لتعمر بها هذه الأرض لتتحقق إرادتى لك بخلافتى عليها
- ❑ يا عبدى لا تبارز بعلمك حكمتى فإنك لن تصل بعلمك إلى حكمتى... فإن أمرتك فاتبع وإن نهيتك فانته.
- ❑ يا عبدى إنى قد أودعت فى قلبك فطرتى.. لتسير بها فى طريق عبادتى فما خلقتك وخلقت كل شىء فى هذا الكون إلا لعبادتى.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾..

[الروم - ٣٠]

- ❑ يا عبدى توكل على بفطرتك حق التوكل فإن توكلت على كفيتك مما تحذر ومما تخاف.
- ❑ يا عبدى إن أمرى بين الكاف والنون... فإنى أقل للشىء.. «كن».. فيكون.. حينئذ لاينفع مع «أمرى»... حساب أو قانون.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾..

[يس - ٨٢]

مما سبق من بنود.. هى أهم قواعد «علم الأساس».. «علم الفطرة» كما يراها الباحثون من أهل العلم والتقوى.... وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فإن الله (سبحانه وتعالى)... قد جعل العقل أداة للاستكشاف والبحث والتنقيب.

حيث يقوم العقل بالتجول والاستكشاف حول وداخل القلب ليتعرف.. ماعليه.. ومافيه من أسس وجذور العلم التى وضعها وأودعها الله (سبحانه وتعالى) على القلب وفى داخله.

ومن هنا يرى الباحثون المدققون أن العقل يستكشف من القلب ما يراه..أما مالا يراه فإنه لايستطيع أن يصل إليه ولا أن يستكشف ماهيته.. وهنا تكون بداية القضية..

❑❑❑

التدبر فى أسرار «علم الفطرة»

الهدف من التدبر فى أسرار علم الفطرة.

هدف التدبر فى أسرار «علم الفطرة».. هو إظهار تلك الحقيقة المبهرة ألا وهى:

«علم الفطرة» هو الأوسع والأعمق من «علم الحساب».

بل إن الفكر الأدق والأكثر قربا من نظريات «علم الحساب» يعرف أن هذا العلم هو فى حقيقته كمية محددة بالنسبة إلى كمية أخرى غير محددة (لا نهائية) ألا وهى «علم الفطرة». ومن ثم فإن المعادلة الحسابية البسيطة والشهيرة التى تحدد:

«قيمة النسبة بين كمية محددة إلى الكمية غير المحددة (اللانهائية) تساوى صفرا».

ولغتها الرقمية:

$$\frac{\text{أية كمية محددة}}{\text{مالا نهاية } (\infty)} = \text{صفر}$$

وهذا يعنى أن «علم الحسَاب» الذى يمثل جزءا من العلم أو الأسماء كلها التى أودعها الله (سبحانه وتعالى) حول وفى داخل قلب آدم وبنيه من بعده.. هذا العلم إنما هو قطرة من بحار علم الله (سبحانه وتعالى).

وهذا يدل على أن قيمة النسبة بين «علم الحساب «إلى أسرار علم الله (سبحانه وتعالى) إنما تساوى صفرا لأنها نسبة القطرة من الماء إلى المحيط الذى يحتويها.

ولهذا فإن «علم الحساب» لا يستطيع إلا تحديد العلامات والدلائل المتاحة له من خلال قوانينه وما يتبعها من معادلات وقياسات.

أما تلك العلامات والدلائل الأوسع نطاقا وعمقا فإن «علم الحساب» لا يستطيع تحديدها أو الوصول إليها من خلال قوانينه وقياساته وهنا يصل الباحث المتدبر أن هناك مناطق إيمانية وغيبية خارجة عن نطاق التحديد بتلك القوانين الحسابية. وإنما تتصل تلك المناطق الإيمانية والغيبية مباشرة بأسرار القدرة الإلهية.

وعند تلك المناطق الإيمانية والغيبية تظهر حالات الطاعة أو العصيان وحالات التصديق أو النكران وعند هذه المنطقة تهيمن حالة القلب لتظهر تلك الحالات. وهذا ما يفسر للباحث مثالا قد يراه فى عالمه الواقعى وهذا المثال هو:

كيف أن عالما من الكبار فى مجال العلم الحسابى أيا كان نوعه أو تخصصه ومع هذا العلم الغزير حسابيا والذى قد يحصل عليه هذا العالم بجده واجتهاده طوال حياته العلمية المتميزة.. ثم يكون من هذا العالم أنه لا يؤمن بشىء غيبى أو يؤمن بطريقته الخاصة فيعبد النار أو الشمس أو نوعا من الحيوان.

وهذا المثال الذى قد يُرى واقعيا فى هذه الحياة إنما يحل لغزه تلك الحالة التى عليها القلب حيث يجىء هذا المستكشف الماهر

«عقل هذا العالم» إلى قلبه فيجد الطبيعة فى منطقة الاستكشاف لا تسمح بأى عمل من الأعمال الاستكشافية فى هذا الوقت فيعود المستكشف من حيث أتى دونما أن يعلم شيئا عن حالة المكان أو طبيعته.

وهـذا المثـال أيضا يوجه الباحث كيف أن عالمـا آخر من الكبار فى مجال العلم الحسابى أيا كان نوعه أو تخصصه وفى وقت يرى أية مبهرة تدفعه إلى هذا الإيمان الغيبى و يؤمن على الفور ويخرج مما كان فيه من حالة التيه والضلال.

وتحقيقا للهدف والمراد من توضيح الفرق بين «علم السـطح» أو «علم الحسـاب» و«علـم الأسـاس» أو «علم الفطرة». يجب عـرض الأحداث التاريخية التالية.

❑❑❑